

ماركيوز سُقراط برلين: النقد بمايوتيقا وعينية الحقيقة

Marcuse, the Socrates of Berlin: Critique through the Mayeutic Method and the Tangibility of Truth

قاييد سليمة	شادلي أشرف*
المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة (الجزائر)	جامعة تيزي وزو (الجزائر)
Salima.gaid@gmail.com	Achraf.chadli@fshs.ummto.dz

ملخص:	معلومات المقال
تكشف بعض نصوص ماركيز، مفكر برلين، بأن الفلسفة الحقّة هي الفلسفة التي تأخذ الوجود العينيّ في حضوره اليوميّ كموضوع للتّفكير، فتقلّبه وتقولّبه ليس ضمن تحدّيات مجرّدة، بل ضمن إمكانات تراعي الوجود ذاته. هذا الوجود يحمل دائما حقيقة ما، لا تكشف عن ذاتها ببساطة، إنّها شيء يجب أن نكافح من أجله لكي نجعله موضع الابانة والظهور. والانخراط في هذا التّضال يكشف بعدا آخر في فلسفة ماركيز وهو البعد السّقراطي للحقيقة. وهو بالذات ما تسعى هذه المقالة جاهدة لكشفه. فهي تتّبع جذريّ لذلك الطابع الثّوريّ الذي تحمله فلسفة ماركيز، ولكن ليس في بعده الماركسيّ أو الهيجليّ أو الهيدغري، بل في بعده السّقراطي المايوتقيّ كبعد جديد تحمله كتاباته التي لا طالما تكرت سقراط كموضوع ثناء من جهة، وأشادت بكيركجار لسقراطيته من جهة أخرى. ومنه ماركيز برلين ليس مفكّرها، بل سقراطها أيضًا.	تاريخ الارسال: 2023/07/26 تاريخ القبول: 2024/12/08 الكلمات المفتاحية: ✓ المايوتيقا ✓ الحقيقة ✓ ماركيز
Abstract :	Article info
Some of Marcuse's texts, as a philosopher rooted in Berlin, assert that true philosophy must engage with concrete existence in its daily manifestations, making it a subject of reflection and critical revision. This approach emphasizes studying existence as it is, independent of abstract challenges. Such existence inherently conceals a hidden truth that does not easily reveal itself; instead, it requires a deliberate struggle to bring it into the light, making it an object of manifestation. This paper explores a significant dimension of Marcuse's philosophy-the Socratic conception of truth. It presents a radical return to the revolutionary essence of his thought, not in its Marxist, Hegelian, or Heideggerian aspects, but through a Socratic-Mayotic lens. Marcuse often praised Socrates explicitly and celebrated Kierkegaard as a Socratic philosopher, positioning himself in this tradition. Ultimately, this study posits that Marcuse can be seen as both the Socrates and the philosophical conscience of Berlin.	Received :26/07/2023 Accepted :08/12/2024 Keywords: ✓ The Mayeutic Method ✓ The Truth ✓ Marcuse

❖ **مقدمة:** عاشت ألمانيا في عشرينيات القرن الماضي، 1920، وضعًا سياسيًا مقلقًا مع بدايات صعود النازية وخطر الحرب، ومع ذلك فإنّ هذا الوضع استتفد اتجاهات فلسفية عديدة اتسمت بروح الابتكار وتعزيز التغيير الاجتماعي، أشهرها مدرسة فرانكفورت (Frankfurt School) التي جمعت بين الطرح الماركسي والفينومينولوجي لانتقاد النظام الاجتماعي والسياسي القائم آنذاك. يعدُّ ماركيز (Herbert Marcuse 1898-1979) عضوًا في المدرسة ومفكر ناقد لتحديات العيش في المجتمع الصناعي الرأسمالي. ولقائه مع الأستاذ إدموند هوسرل (Edmund Husserl 1859-1938) وتلميذه مارتن هيدغر (Martin Heidegger 1889-1976)، هو ما جعل كتاباته المبكرة (Frühe Aufzäte) ممكنة الظهور وبشكل لأمع. 1920، هو تاريخ اللقاء مع فلسفة هيدغر، مكتشفًا في ذلك فلسفة باحثة في الوجود. كما أنّ واقعيّة مؤلّف: الكينونة والزمان (Sein Und Zeit 1927) قدّمت لماركيوز صورة عن فلسفة أنطولوجيّة تُعنى بالوضع الإنسانيّ؛ ولو أنّ سؤال الأساس فيها هو سؤال الكينونة (Being) الذي وقع في النسيان.

تنبه الشّراح إلى أنّ مسار ماركيز الثوري لم يكن لينظم لولا خطواته الاستكشافيّة الأولى بين سنتي 1931-1920. أين نلتمس حضور فكر كلٍ من هيغل (Friedrich Hegel 1770-1831) وماركس (Karl Marx 1818-1838) وهيدغر بشكل أكبر في كتاباته.

إن الفلسفة مع ماركيز، هي نظر ثاقب في الوجود وتتبع فاحص لحركته وثورة عليه وفق إمكاناته. فالواقع لا يحمل لنا كل الحقيقة، لأنّه يحجبها عن الكشف ويمنعها من التعرّي والسّفور. وهنا مكنم التّفلسف، أي في الثّورة على هذا الواقع المتخفي واستنطاقه بالحقيقة. هذا الطّابع الذي تكتسيه الحقيقة يكشف عن سقراطيّة في الطّرح؛ أين نلمس حضورا فلسفيًا آخر في كتاباته وهو الحضور السّقراطي.

نحن على قناعة بأن النصوص مثلها مثل الحقيقة، إنّها ليست معطاة بشكل مباشر، بل هي بحاجة إلى من يحرّرها فيوضّحها. تستوقفنا القراءة الأولى لنصوص ماركيز، على تأثره الواضح بالفلاسفة الإغريق وبلغتهم. وأخصّ بالذّكر هنا: سقراط (Σωκράτης 470-399) الذي يذكره بشكل مكرّر ولافت للنظر، فينوّه به ويثني عليه، في أكثر من موضع. هذا إن دلّ على شيء، فإنما يدلّ على المكانة التي خصّصها للفلاسفة الإغريق عمومًا ولهذا الفيلسوف

تحديدًا. كما يثني في مواضع أخرى على الفيلسوف الدانماركي سورين كيركجارد (Søren Kierkegaard 1855-1813) واصفًا إياه بالسقراطي الثوري، كما سنرى ذلك لاحقًا. وهنا لا مجال لمبدأ المضادفة أو الرّيب، بل هذا الثّناء يكشف بعدا آخر وقراءة أخرى لفلسفة ماركيوز.

بعدما استوقفنا النصوص عند هذا الحضور السقراطي الجديد الذي تحمله كتاباته، ها هي الآن تدفعنا وتثير فينا التساؤل بعدما استوقفنا. كيف أثبت الإرث السقراطي المايوتيقي حضوره في فلسفة تُعد من أقوى فلسفات القرن العشرين؟ وما هي المهمة التي ستحملها الفلسفة على عاتقها في خضمّ هذا الحضور؟

كان ماركيوز فيلسوفًا وقارئًا ناقد للفلاسفة الآخرين، ودراستنا هذه هي تقصّ جديد في جذور فلسفته النقدية، وذلك بشقنا لطريق طويل يفضي بنا إلى غاية الإغريق، أين سنلتقي به يُعلي من مقام سقراط ولا يستعلي عليه بالنقد وبذلك سنكتشف طريقًا جديدًا في فلسفته، مُعتمدين في ذلك على تحليل جذور هاته الرؤية النقدية. وسنسير جنبًا إلى جنب معه، ولكن في ميدان النصوص، بهدف فهم كيف ولماذا تشكّلت هاته الرؤية. ولبلوغ ذلك، يجمل بنا أن نتوقف مع ماركيوز عند لحظتين: اللّحظة الأولى هي لحظة تُشيد لسقراط، محاولين فهم علاقة ذلك بفلسفته سواءً بشكل ضمني أو علني، أمّا اللّحظة الثانية، فهي لحظة سقراطية ولكن في صورتها الكيركجاردية، أين سنلتقي به مرّة أخرى قارئًا لهذا الأخير، معتمدًا عليه في إيضاح بعض أفكاره الفلسفية.

من بين النصوص التي اخترناها للبحث والدراسة، مقال: في الفلسفة العينية (Über Konkrete Philosophie). باللسان الألماني. الذي تشير الدراسات إليه عادة بشكل عابر دون الوقوف على حيثيات أفكاره. وهنا موضع آخر لأصالة بحثنا وسنحاول استتطاق الأفكار التي تضمنها هذا المقال وتحليلها، بما يخدم إشكالية ورقتنا.

❖ الحقيقة النقدية في بُعديها المايوتيقي العيني:

■ سقراط مايوتيقيًا: فسرهُ Bailly (2020) أنها قابلة مُسنّة تساعد أمّا شابة على وضع حملها. تَلْكُمْ هي الصورة التي قدّمها لنا سقراط واصفًا عملية ولادة معرفة جديدة. المايوتيقيًا (Μαῖευτική) (Maïeutique) فنُّ التّوليد أو أنا أولد (Μαῖεύω)، هذه هي الطريقة

السقراطية في التّعليم. قبالة سقراط هي قبالة خاصّة، لا تهتمّ بسكب ونثر فكرها في صحيفة من جلد الماعز. بل تجعل القضية المثارة موضوعاً لهذا الفكر في رابطة خاصّة بين نظريّة المعرفة والتّواصل (أورد في: Jon Stewart, Katalin Nun, 2016). الحوار في سقراطيته شكل من أشكال التّواصل الذي من خلاله يتمّ تقاسم المعرفة ومشاركتها.

إنّها قبالةٌ عقلية تُعنى بفحص العقول دون الأبدان والرجال دون النّساء. أيّ في قبالتها لا تنتج البشر، بل الحقيقة من عقول البشر؛ بمهارة حوارية سلاحها الاستفهام. فسقراط شكّل واسطةً بين الإنسان والحقيقة. وعليه، المشروع السقراطي هو مشروع إبانة للحقيقة بطريقة ثورية عينية قائمة على استجابات فلسفيّة دقيقة. هذا الاستجواب شكّل حجر الأساس في العمليّة، كاشفاً لنا ذلك التناقض الذي تحجبه معتقداتنا وافتراضاتنا الخاصّة، مؤلّداً لنا المعرفة السليمة المكنونة في عمق ذواتنا، ليُعيّنها على الخروج إلى السّطح. هذا البعد الاليتي (من كلمة آليثيا، الكشف أو عدم الحجب، Ἀλήθεια) والمايوتيقي للحقيقة، هو ما يبدو أنّ ماركيز كان يعتقد بأنه الأجدر بالتّناء. أن نفهم حقيقة ذواتنا ومن ذاتنا تحديداً هو ما كان ماركيز على وصاية دائمة به. لأنّ هذا الفهم يُغيّر نظرتنا إلى ما حولنا فيكشف قبحه أو إمكانات أفضل لما هو عليه. و"إذا لم ينقلب الإنسان في سلوكه بالذّات عن طريق وعيه ماهو واقع وما هو محظور، فإن التغيّر النوعي لن يكون حتّى ولو وقعت كارثة كبرى" (أورد في: ماركيز، 2004). أضاف ماركيز (2004) أنه من الضروري لكل يقظة وعي أن تضع حاجات العالم القائم موضع مساءلة معيارية، كاشفة عن زيف مفرداته أو حقيقتها.

■ الحقيقة بما هي كشفٌ عينيّ: في الفلسفة العينيّة (Über Konkrete Philosophie). إحدى المقالات المبكّرة لفيلسوفنا، نُشرت لأوّل مرّة سنة 1929 في مجلّة ألمانيّة معنونة: أرشيف العلوم الاجتماعيّة والسياسة الاجتماعيّة (Archiv Für Sozialwissenschaften Und Sozialpolitik). يتناول فيها البعد الحقيقي للفلسفة العينيّة العمليّة التي تهتم بالوجود الإنسانيّ (Dasein). الفلسفة المتجذّرة في العينيّ هي وحدها التي توفّر الأساس لتحوّل ثوريّ حقيقيّ للمجتمع. وبقرائتنا الفاحصة لنصّها، أدركنا خصوصيّتها الفارقة، ففسنا اللّحظ على ما يلي:

- الفلسفة الحقّة، هي الفلسفة العينية الثوريّة التي تهتم بالوجود الإنسانيّ (Dasein) في حركته، لتحقيق له أفضل وجودًا.
- إذا كانت الحقيقة (The Truth) متعلّقة بوجودنا (أي وجود الدّازاين) وبما يحيط بنا في ظاهره وحجبه، فإن مهمة الفلسفة الأولى تتعلّق، بإيقاظ نباهة الذات تجاه وجودها المحجوب، وبكشفها للحقيقة الحقّة وقلب وجودها في سلبيّته إن أمكن ذلك ولزم مراعية في ذلك مبدأ الإمكانات.
- يُعطي سُقراط وسورين كيركجارد أهميّة قصوى.

في هذا المقال الذي أسلفنا القول عنه وفي كتاب آخر، الإنسان ذو البعد الواحد (One-Dimensional Man)، يحلّل Marcuse (1964) مفهوم "الحقيقة" (The Truth) عند الإغريق. والحقيقة كما يفهمونها، ليست مجرد ميزة أو خاصية للقضايا، بل هي شرط للوجود. الحقيقة واقع، واللاحقيقة، أي الخطأ والبطلان هو ما هو غير واقعي وبالتالي هو العدم. هذا ما يجعل الحقيقة قيمةً. وإذا كان الوجود هو الواقع فهو أفضل من اللاوجود، أي أفضل من العدم. لكن، هل هذا العدم يمثل امتلاءً لشيء ما أم خواء؟

العدم هنا ليس خواء بل هو امتلاء للوجود توعّد وخطر يداهم؛ فيصير اللاوجود حضور وإمكان لأن يجعل شيئاً ما موجوداً، وإن لم تتم مقاومته يصبح واقعاً وحقيقة، أي يصبح كائنًا. لنفرض أنّ هناك شخصاً ترسم مخيلتهم المحنكة مخططاً حربياً ما. إذا لم نعمل على منعهم، فإنّ طموحاتهم الخفيّة خطر يوشك أن يكون حقيقة. فهذا الذي كان لا وجوداً قد أصبح كائنًا. فالحقيقة في كشفها كفاح ونضال ضدّ هذا الخطر. فيصير، مع Marcuse (1964) نضال الحقيقة صراعاً ضدّ الدمار و"خلاص" (Σώζειν) للوجود. بعبارة أيسر، إنّ البحث عن الحقيقة سعي لحماية الواقع من الهلاك.

يشير Marcuse (1964) إلى أنّ نضال الحقيقة خطر بعينه، لا يجري دائماً بالطريقة التي نريدها أو نشتهيها. على سبيل المثال، كان ينظر إلى سُقراط على أنّه كائن مُتمرد شكّل تهديداً للدولة المدينة الأثينية لأنه تحدّى النّظام القائم آنذاك. نضيف إلى ما قلناه آنفاً، إنّ مكر التّاريخ أوقع بماركيوز الذي طالما أشاد بنضاليّة وجرأة سُقراط. حيث سرعان ما صار هو نفسه

تحت رحمة المكتوب. وفي خريف 1996، وعبر مجلة (New Political Science) يُخبرنا جورج كاتسيافيكاس (George Katsiaficas) (1996) عن ردود الفعل التي تلقّاها صديقه ماركيز نتيجة ما خطته كتاباته وما أنتجته من تأثير. أشهرها وصفه بـ مُفسد عقول الشباب- وهي نفس التهمة الموجهة لسقراط. كما اتهمه الحاكم رونالد ريغان بالمخرب والمسؤول عن الاحتجاجات الطلابية في الستينيات. هذا غير التهديدات بالقتل والتشهير في وسائل الإعلام وحرمانه من التدريس في الجامعة، ممّا أجبره على التعاقد بشكل غير رسمي.

نريد التأكيد هنا على المهمة الأولى للفلسفة، عند Marcuse (1929)، فهي جهدًا فعليًا باعتباره رؤية للحقيقة. أكد ماركيز (2004) أن كل فلسفة حقيقية لا تتوقف عند حدود المعرفة، ولكنها يجب أن تسعى جاهدة نحو تقدّمها تجاه الحقيقة الواقع. أي نحو كشفها وإظهارها وملاءمتها الملموسة العينية مع الوجود البشري (الدّازين). الفيلسوف مهمته الأساسية هي فهم العالم وتوضيحه للأفراد الذين يعيشون فيه. أي، فهم ما فعله الإنسان وما بوسعه أن يفعله. والذي هو واجب أخلاقي في نظر سقراط، كما يبين لنا ذلك النص الأفلاطوني.

حسب Marcuse (1929)، الاهتمام بوجوده (الدّازين)، وحقيقته يحول الفلسفة إلى علم عملي ويقودها إلى محنته العينية. فالتفلسف كما يفهمه هو نظر في هذا الوجود وسؤال عنه. سؤال يحمل على عاتقه مهمة نقل الدّازين إلى الحقيقة؛ هاته المهمة لن تبلغ غايتها إلا إذا وجهت نقدًا نحو مجال الفعل (The Sphere Of Action). لأنّه في مجال الفعل فقط (Πράττειν) يمكننا اتّخاذ قرارات وجوديّة، قرارات تحدّد طريقة عيشنا، قيمنا وأهدافنا وعلاقاتنا، وتزوّدنا بفهم أفضل لأنفسنا وللعالم من حولنا.

وهنا نتساءل مع ماركيز، كيف يمكن للفلسفة الواقعيّة أن تصل إلى الوجود الإنساني وتلاقيه في تجربته الحيّة؟ يجيبنا بوضوح: «يجب ألا تكتفي بإنتاج الكتب التي تحتوي على حقائق عموميّة مجرّدة بل تأخذ بعين الاعتبار السياق والوضع المحدد له. السؤال السقراطي كان سؤالًا إلزاميًا يُجبر الفرد على مواجهة وجوده واتّخاذ قرارات بشأن الطّريقة التي يريد أن يعيش بها حياته.» (أورد في: Marcuse, 1929). وهنا ماركيز ينوه، مثله في ذلك مثل سقراط، إلى فعالية الملفوظ. تلك "الكلمة الصّائتة" التي نتخيّر المنصت لها. تلك الكلمة التي تُلقى على مسامع المتلقي في صورة حيّة، لا تؤول في الحال إلى مآل غير ما آل إليه المتلقي

وتقدّر من نفسها على الدفاع والتّخيير، بين أن تكون صامته وبين أن تكون صائتة. فالمنهج الفلسفي في تقديرهما يتطلّب بالدرجة الأولى جدلاً بين عقليين في صورةٍ علنيّةٍ حيّةٍ تحبو نحو نقاش ما ذي وتيرة راهنيّه، وهذا ما يوفّره الملفوظ أكثر من المكتوب. «الفلسفة العينيّة يجب أن تحمل المهمّة ذاتها، عندها فقط يمكن أن تخاطب الوجود الإنساني وتلتقي به.» (أورد في: (Marcuse, 1929).

وعندما نقول إنّ مصبّ الاهتمام الفلسفي هو الوجود الإنساني، فإنّ هذا القول لا بدّ من أن يورد مقترناً بشيءٍ من الاحتراس؛ لأنّه لا يقصد تلك الفردانيّة المطلقة، لأنّ قرارات الفرد لا تخضع لإرادته الحرّة بشكل خالص، بل تتشكّل أيضاً من العالم الذي يحيا فيه (1929). المجتمع لا يشكّل موضوعاً بالنسبة إلى الفرد كجزء منه، بل هذا الفرد هو المجتمع بعينه. هنا الفرد لا يكون ضحيّة مصير جماعي ولا دُمية يحرك خيوطها المجتمع بل ما زال حراً مسؤولاً عن قراراته التي لا تتخذ من فراغ، وتحدّد في السياق العام. وهو إلى ذلك مسؤول اتّجاه العالم الذي يحتوي وجوده، فيكون مشاركاً نشيطاً في تشكّله وليس مجرد مُتلقٍ سلبيٍّ لتأثيراته عليه. العالم هو حقيقة وجود الفرد.

ثم أنّ الدّازين، في نظر Marcuse (1929)، في حضوره هو دائماً تغيّر لا يعرف الثبات، هذه الصّيرورة هي ظروف من جهة، وبمثابة تأثير وعمل من جهة أخرى. فأفعالنا تؤثر في العالم وتتأثر به، في الوقت نفسه، نغيّر العالم والعالم يُغيّرنا. وهي إلى ذلك ليست مجرد استجابة لردود أفعال سلبية، بل تُحدث فعلاً فيه وتتدخل في نشاطه وتشكّله. ببساطة، الوجود الإنساني وجود حيويٍّ ومشارك في العالم. هاته الشّراكة الأنطولوجيّة لا تبلغ كمالها إلّا بحياة أخرى هي "حياة التأمّل" (A Life Of Contemplation) (Βίος Θεωρητικός) كأسلوب عيش. الدّازين الذي يحيا وفق لـ (Bios Theoreticos) يتعرّض باستمرار لأفكار وخبرات جديدة. هذا التعرّض يؤدي في النهاية إلى تغيير في نظرتّه حول العالم وفهم أفضل لكيانه. " حياة التأمّل" (Bios Theoreticos) يجب أن تعايشها الذات بالطريقة الصّحيحة. هذه الحياة ليست انسحاباً من العالم بل تعايش دائم معه بطريقة تسمح بمعالجة مسائل أساسيّة للوجود البشري (الدّازين). ذلكم هو التأمّل السليم والعيش الأصيل حسب ماركيز.

كما يؤكد أن التفلسف ليس مجرد نظر عقلي تخميني أو تمرين فكري مجرد، بل هو نشاط عام يتخذ "العالم اليومي" (Everyday World) كموضوع للتفكير. الفلسفة من الضروري أن تكون "واقعية" أو "عينية" (Concrete) متجذرة في العالم الحقيقي. الفعل هو وحده الذي يسمح بتحريك الوجود نحو حقيقته.

يُعدّ الحوار السقراطي، وذلك طيلة المحاورات الأفلاطونية -بالأخص المبكرة- أصدق تجسيدا لعبارة "الفلسفة هي صداقة وحبّ طلب، وليس تملُّكًا." هذا التّواضع الثّأوي في دلالة الكلمة هو الطّابع الأساسي للإلهة مَنيرفًا (بتعبير هيقل). الفلسفة مع سقراط ليست تملُّكًا لحقيقة الوجود، بل مساءلة هذا الوجود للوصول إلى قدر معتبر منها، الشّعور بحسّ الصّداقة والطلب، ليس مجرد شعور بمحدودية المكان الإبتيمولوجي؛ بل هو أيضًا انفتاح للكائن على الحقيقة. وأثناء هذه المساءلة نعيش مع الفلسفة، بها ومن أجلها؛ فتصير الفلسفة فنًا للعيش الأصيل. وهنا سيطرق ماركيز الباب ذاته، في الفقرة الأولى من نصّ المقال، ويقول: «الحقيقة ليست استحواذا بل فعاليّة في الوجود.» (أورد في: Marcuse, 1929). طريق الحقيقة ليس معرفة بها، بل كيف نحيا بها ومن خلالها؛ نلائمها لوجودنا؛ صنع خاصّ بنا، ندمجها في حياتنا ونسمح لها بتشكيل سلوكنا. الحقيقة ليس تملُّكًا بل فنًا للعيش. وهذا هو حال الحقيقة الرياضية عند الفيثاغوريين (نسبة للفيلسوف والرياضي اليوناني فيثاغورس Pythagoras).

في هذا السياق، يشير Marcuse (1929) إلى أنّ المعرفة الرياضية كما فهمها هؤلاء لم تكن مجرد حقائق عقلية مجردة عن الأعداد والأشكال، بل كانت تعبّر عن حقيقة الوجود الواقعيّ للوصول إلى فهم أعمق له. أي فهم الحقائق الكميّة بعمق أكثر يساعدنا على عيش الحياة الواقعيّة بطريقة أقل ما يمكن أن نقول عنها إنّها أصيلة. نأخذ على سبيل المثال الفيلسوفة ثيانو الكروثونية (Theano Of Crotona) (زوجة فيثاغورس) في شذرتها المعنونة: (في التّقوى). من خلالها توضح سوء الفهم الذي وقع فيه بعض أتباع البيثاغوريين. حول مسألة العلاقة بين الأعداد بصفة حقائق مجردة والعالم بأشياءه الجسمانية المادية. تجيبنا ثيانو بأنّ العلاقة هي علاقة مشاركة ومحاكاة. والحقيقة أنّه لم يقل [فيثاغورس] إنّ كلّ الأشياء تأتي من العدد، بل جاءت وفقًا له مستندة في ذلك إلى النّظام البسيط الذي يحمله، أي النظام الذي يحكم العدد ذاته. ومييا (Μυῖα) (ابنته) تطبق هي الأخرى مبدأ التّأغم (الهارموني)

(ἀρμονία) كمبدأ رياضي كميّ لحياة النساء اليومية. ففي خطابها إلى السيّد فيلليس Phyllis تناقش عبره حاجيات الطّفل حديث الولادة وكيفية إشباعها وفق ما يمليه هذا المبدأ (أورد في: إيلين ويث، 2000).

فالمهمّة الأساسيّة للفلسفة لا تتعلق بإنتاج حقائق نظريّة فقط، بل أيضًا بتطوير وتطبيقها في الحياة وإعطائها طابعًا عينيًا وجوديًا والعيش بها بطريقة صحيحة وأصيلة.

ينبّهنا Marcuse (2014) في الأخير، إلى أنّ العيش بالفلسفة لا يُعنى به الانغماس في الواقع بشكل كليّ فتكون بذلك مجرد حركة تابعة له؛ بل يجب أن تحافظ الفلسفة على هويّتها النّقديّة، تلك الهويّة المثقّلة بطابع النّفي (The Negating) للتّفكير باعتباره الطّريق إلى الحقيقة. هذا الطّريق يُظهر ويكشف عيوب فهمنا اليوميّ للواقع، ويسعى نحو فهمه فهمًا جديدًا وأكثر عمقًا في طبيعته الحقّة.

الفيلسوف هو الوحيد الذي بمكنته إدراك مدى حتمية تجاوز خبرتنا المباشرة. بل أبعد من ذلك، المسألة لا تتعلق بمجرد تجاوز هذه الخبرة، بل بقلبها وزحزحتها وإجبارها على الحركة للكشف عن تناقضها الخاص. وإذا كان المفهوم هو شكل للواقع، فإن المهمة الأولى للفيلسوف هي الكشف عن حقيقة هذه المفاهيم وقلبها أو بالأحرى هدمها (Subversive Activity) لإحداث التغيير (The Change). هذا النوع من الكشف لا نبغّه إلّا من خلال "الكلام المنفتح" (Διαλέγεσθαι) أو (Talking Over) ما يعتبر بديهيًا في خطابنا اليومي. لنحترس من كلمة دياليغومي (Διαλέγεσθαι) هنا تعني الكلام بطريقة فيه ممارسة دياكتيكية. والتفكير الضعيف هو الذي لا يستطيع أن يحقق هذا النوع من التمرس. يختتم ماركيوز بالقول: «إن الحوار السقراطي هو نهج قيم يكشف الحقيقة ليحدث التغيير. حوار يفتح دئمًا على أفكار جديدة تحمل تحدّيًا لوضع ما راهني» (أورد في: Marcuse, Herbert, 2014).

يعتبر ماركيوز (2004) المدخل المفهوميّ، في نظر هذا وذاك، هو المعبر نحو معالجة إشكالات المجتمع الإنسانيّ. اللّغة الفلسفيّة تتجاوز معنى السّياق التّجريبي المباشر، لتصل إلى حقيقة واقعه في عينيّتها الحقّة، تجرد ما هو عينيّ مباشر لتبلغ العينيّ الحقيقي. هذا ما يعبر عن النّقلة المعرفيّة ذاتها التي خرج بها سُقراط في مأيوتيقته، فهو لم يبق أسير الكلمة

في مدلولها الشائع بل تجاوز ذلك العرض الجزئي إلى الكلمة في مدلولها الأحق والكلي. وهذه الغاية هي غاية أخلاقية من منطق مفهومي.

❖ **كيركجارد والتحدي السقراطي للحقيقة:** نريد أولاً، أن نلفت نظركم إلى أن ماركيز يمتدح بشكل دائم إسهامات كيركجارد الأخيرة؛ ويستند إليها في توضيح بعض أفكاره، لا لسبب سوى لأن هذا الفيلسوف كان سقراطياً ثورياً. وتحليل وجهة نظر ماركيز للرؤية السقراطية في نص كيركجارد هو ما سنسعى تحديداً لكشفه وبيانه الآن.

■ **الحقيقة بوصفها مزامنة:** كما أسلفنا الذكر، الفلسفة في نظر ماركيز لا تقترب من الوجود الإنساني إلا بالبحث عنه في المجال الذي يوجد فيه، مجال الفعل. هذا الشكل من التقارب يسميه ماركيز "المزامنة" (Simultaneity). وكلمة "مزامنة"، ليست مجرد تجاور مؤقت، بل هو تعايش (co-existence) ومصير مشترك (common destiny) (1929). حقيقة أن الفلسفة تتزامن مع الوجود العيني الواقعي، تعني أنها تهتم بالاحتياجات العملية للناس في عالمهم الحقيقي. أي، بالحياة كما هي مقارنة بالشكل الذي يجب أن تكون عليه.

يوضح لنا ماركيز مفهوم "المزامنة" أكثر مع كيركجارد، بالعودة إلى مقاله المعنون بـ: مفهوم المختار (Der Begriff Des Auserwählten). التزامن هو التوتر الذي لا يسمح لك بالتخلي عنه، ولكنه يُجبرك على القلق أو الإيمان. (1929) التوتر هو حالة أساسية في الوجود البشري يثار باعتبار هذا الوجود وجوداً زمانياً تحيا فيه كائنات زمانية، هو حالة نصطدم فيها بالأبعاد الثلاثية للزمان (الماضي، الحاضر، المستقبل) لأن الزمان واحد ووحيد. حالات في تفاعل دائم مع بعضها. فالماضي يأخذ من حاضرننا نصيبه بذكرياته وأفكاره ومشاعره فهو يؤثر ويشكل بصورة ما وجودنا في حاضره. كما أن للمستقبل نصيبه هو الآخر والذي لا يسقط من حرارة تفكيرنا الدائم به. فالتفكير فيه هو بحث عن مصير. آمالنا ومخاوفنا من المستقبل قد تحفزنا أو تعيقنا، واللحظة الآنية تكون عابرة وفي تحرك دائم نحو المستقبل. هذه الحالة تجذبنا في اتجاهات مختلفة من هذه الأزمنة فتخلق فينا توتراً دائماً. المزامنة تضعنا في ازدواجية حتمية، هي، إما أن نشير فينا قللاً أو تدفعنا

نحو الاعتقاد والإيمان. القلق هو خشية المستقبل ومحاولة السيطرة عليه، أما الإيمان فهو احتضانه، أي الاستعداد للمستقبل ولو بعدم الجزم لتحقيقه. هذا التجاذب الزماني يخلق خيارات أمامنا تلزمنا باتخاذ قرارات حول الشاكلة التي تكونُ بها حياتنا.

التوتر في تجاذبه الزماني كما بيّناه يخلق فينا "الضغَط النوعي الملائم" (The Appropriate Qualitative Pressure)، (1929) أي يجبرنا على مواجهة حقائق وجودية في حياتنا. ضغط يُجبرنا على مساءلة ذواتنا (من نكون؟ بماذا نؤمن؟ ماذا نريد من الحياة؟). هذه العملية مؤلمة دونما شك، ولكنها ضرورية لفهم أعمق وحقيقي لوجودنا. في نظر Platon تمثل هذه العملية جوهر المايوتيقا، سواء في بعدها الأصلي والجذري مع سُقراط، أو في بعدها المعاصر مع كيركجارد وماركيوز. اعتقد سُقراط أنه من المؤلم أن نواجه تحيّزاتنا واعتقاداتنا وافتراضاتنا، لكنّ هذا الأمر يحمل ضرورةً لتحقيق فهم حقيقي للذات وحقيقة العالم من حولنا، ومواجهة الحقائق أمر غير مريح ولكنه محرّر. ولعلّ الاعتقاد ذاته هو الذي نستشفّه انطلاقاً من القراءات الماركيزية. فمساءلة الذات عناء، يدفعها نحو فهم ذاتها في وجودها، مما يجعلها تخطو خطوة أكبر نحو تحررها.

يشير Marcuse (1929) إلى أن المسافة هاته، التي تخلقها المساءلة، قد تمكّنا من تحويل شيء ما إلى لا شيء، أو في إحداث شيء غير عادي من لا شيء. وبالتالي هذه المسافة، إما تضعنا أمام حقيقة ظروفنا وما حولنا فتشكّل رؤية جديدة لها، أو تفصلنا كلياً عنها إلى درجة اللامبالاة. ولكنّ الإبداع الحقيقي هو حينما تخلق هذه المسافة رؤية غير عادية فيما هو معتاد عندنا وهذا هو لبّ فلسفة ماركيز.

■ **النقد الكيركجاردّي واستنطاق الحقيقة:** إنّ دور المثقّف النّاقّد لا يكمن في فرض الحقيقة على "جماهير جاهلة" (Ignorant Masses)، بل في "جعل الحقيقة مرئية". لأنّ المثقّف الحقيقي هو من يستطيع أن يوقظ فينا هذه الرؤية الإبداعية ويجعلنا نبلغها معه. أي نقلهم من جهلهم بحقيقة الحقيقة إلى العلم والدراية بها. هنا يستحضر Marcuse (1929) كيركجارد مرة ثانية، كمثال "للمثقّف النّاقّد"، ذلك لانخراطه في المجال العام في أواخر حياته. فلقد وجّه جهوده بدقّة نحو الحركة العينية الفعلية الواقعية للذاتين المعاصر، نحو تحوّل "حقيقي" لوجوده، وهو يهاجم الشكّل والمهمّة الواقعية لهذا الوجود، مراعيّاً في ذلك إمكانات الإنجاز المتاحة في تلك اللحظة. وبعبارة أخرى، لقد أدرك

كيركجارد أن المجال العام هو المجال الوحيد الذي يسمح للنضال بأن يكون كائنًا موجودًا، ركّز على الحركات والتحوّلات الواقعيّة التي من الممكن أن تحدث فيها لبلوغها، وكان كيركجارد على دراية تامّة بالإمكانات المتاحة في ذلك الوقت والتي ركّز جهده في النهاية نحوها. إلى الشارع نزل وكتب مقالات ونشر كتبًا، في فعل سقراطي حقيقي. وطابعها الثوريّ هذا، هو مكمّن مايوتيقية كيركجارد.

أمّا الطّريقة المايوتيقية، وفقًا لـ Jon Stewart و Katalin Nun (2016)، إنّ الطّريقة المايوتيقية، بالنسبة إلى كيركجارد، ليست فقط وسيلة تواصل (Way Of Communicating)، بل نهج جديد لمعاودة التّفكير في ظروف الوجود البشريّ. كما أنّ كتاباته، ليست نسخة عن النّمط السقراطي بل تطبيق مايوتيقي جديد في سياق روحي وتاريخي مختلف.

وتُعد كلمة " تكرار " (Repetition) في نظر ماريوس تيمان (Marius Timmann) مفردةً أساسيةً في قاموس كيركجارد. و"التكرار"، في نظره، إعادة التّفكير في القديم بطريقة جديدة. إعادة اختبار شيء ما مرّة أخرى. عندما نكرّر شيئًا ما، فإننا نراه بأعين أكثر حذرًا وابصارًا وبطريقة جديدة. وهنا تحديدًا، يكرّر الإيماءة السقراطية للمايوتيقا في الحادثة، وتحديدًا في ظروف الفلسفة واللاهوت الغربيين.

لقد مسّت الإيماءة السقراطية في صورتها الكيركجاردية الطريقة التي كانت تُمارس بها المسيحية، وليس المسيحية ذاتها. فهو مسيحي ملتزم. المسيحية في حقيقتها ليست مدمّرة ويجب أن تستعيد نقاوتها الأصليّة. وكتاباته هي في النهاية تحدّ لافتراضات النّاس حولها وكشف و"إقصاء" (Take Away) للمعرفة الزّائفة عنها. ومساعدتهم على رؤية الحقيقة بطرق جديدة (2016). وحضور خدمات الكنيسة والسير وفق ما تملّيه قواعدها، لهما أهمّيتهما، ولكنهما لا يشكلان جوهر المسيحية في حقيقتها. فالمسيحية لا تتعلّق بما نؤمن به بقدر ما تتعلّق بكيفية عيشنا به. ولهذا أراد أن يتحدّى النّاس ليفكروا بعمق في تميّزهم، هذا العمق هو منطق التّغيير الذي لن يتمّ بلوغه إلّا بالعودة إلى جوهر الإيمان المسيحي في جديته.

تتعلّق مايوتيقا كيركجارد بمحبّة الحكمة (The Love Of Wisdom) أو حكمة الحبّ (The Wisdom Of Love) (2016). وإذا كانت الفلسفة هي حبّ للحكمة وصداقة معها، هي أيضًا وسيلة لمحبة الآخرين. بإثارتنا لسؤال الوجود وتحدي افتراضات النَّاس، فإننا نساعدهم على أن يصبحوا أكثر وعيًا بأنفسهم وأن يعيشوا بشكل أكثر حبًا وأصاله. يعتقد كيركجارد أنّ كتاباته بمنزلة الهدية (The Gift). حيث أن المتلقّي لها يكتشف عبرها حقيقة نفسه والعالم من حوله. ولكن الأمر ليس بهذه البساطة والجمالية. لأنّه بقدر ما تكون هذه المهمة صعبة على المانح بصفته كاشفًا فهي صعبة على المتلقّي في اكتشافه. وهي مهمّة تحمّل في مطاويها حقيقة ليس من الهين الإفصاح عنها. وهي تحتاج بالدرجة الأولى إلى تقبّل المتلقّي لها واستعداده للشك في الموروث القديم وفي افتراضاته واستعداده لاحتضان الحقيقة في صورتها الأخرى. لذا فهذه الهدية هي خوض في غمار وعر وشاقّ يحتاج لحبّ وفهم وتقبّل. فالعمل بها وجعلها خاصّة به (أي المتلقّي) يجعل شكل هذا التّهادي لغة تغيير ذات مغزى حقيقي (أورد في: Jon Stewart, Katalin Nun, 2016).

يصرح ماركيوز قائلاً: «كيركجارد بعد أن كان يسبح في فكرة الأبدية (Idea Of The Eternal)، أدرك واستوعب في نهاية حياته المجال العام (Public Sphere)» (أورد في: Marcuse, Herbert, 1929). فحسبه، إذا أردنا إحداث فرق في العالم الغربي المعاصر، من الضروريّ الانخراط في هذا المجال. أي، المجال العام. اجتماع النَّاس في السّاحة العامة ومناقشة القضايا الرّاهنة بمثابة ديمقراطية صحيّة (Healthy Democracy). لقد كان فيلسوفنا واعيًا بالطريقة التي تُهيم بها المصالح الخفية الخاصّة والقويّة في المجتمعات الرأسماليّة على المجال العام، والتي جعلتها تعيش شبح "الإغلاق الخطير لعالم الخطاب" (closing of the universe of discourse) (أورد في: John Abromeit, W. Mark Cobb, 2004). ولهذا أراد فتح هذا الخطاب على هذا المجال مآل للتغيّر الاجتماعي وتنظيمه. لأنّ فتح الخطاب في هذا المجال يسمح للنّاس بمناقشة القضايا المهمّة بحريّة، ممّا يؤدّي إلى قرارات أفضل تسعى نحو تغيّر اجتماعي تنظيمي جذريّ.

إنَّ الوعي الفردي من أجل التغيير يملك القدرة والإمكان على بلوغ هذه القرارات، لكنَّها تحتاج إلى توليد وإثارة، إذا لم يتم توقيفه أو بالأحرى تخديره بشكل ممنهج من قبل قوى قمعية خفية؛ تقبع النَّاس وتَغْمِسُهُمْ بشكل ما فيما يحيونه ويخدرون سؤال النِّقد صوب ما حولهم.

ويضيف Marcuse (1929) قائلاً: «صمت الهجوم عذاب، لا طالما حاول كيركجارد كسره». وهذا تأكيد على التَّقويض بصفته هُويَّة فلسفيَّة. "التَّفلسف ليس مجرد تتبع بسيط للوجود في حركته أو فعل تحليلي لوضع راهني ما، بل هو تحدٍ نقدي لهذا الوضع. هذا هو التَّزامن كما نفهمه" (1929) إنَّه معاشة كاسرة لصمت الوجود. فالصَّمت، في نظره، ليس سكوناً بل يحمل خفايا ضاربة وتناقضات خطيرة تحرك وعينا ووجودنا بالطريقة التي تشاء في هذا العالم، فيصبح صنع الوجود، أي حركة الدَّازين في اتخاذ قراراته وتقرير مصيره، انفلاتاً من اليد. أهمَّ شيء يمكن أن تفعله الفلسفة هو طرح التَّساؤلات وتحدي الافتراضات. لكن عندما يهتزُّ " الوجود المتزامن " للمجتمع في أساسياته، يصبح من الواجب أن تتدخل الفلسفة وتساعد في خلق طريقة جديدة للوجود. بهذه المهمة تشقُّ الفلسفة لنفسها طريقاً يناقض المسلك الذي رسمه لها فيتغنشتاين [Ludwig Wittgenstein]، بوصفها مشروعاً يترك كلَّ شيء كما هو، وهو مشروع سادي كما وصفه ماركيز (أورد في: ماركيز، 2004).

حسب جون أبروميت John Abromeit ومارك كوب Mark Cobb تكمن شجاعة ماركيز في حديثه عن حقيقة السُّلطة والخلافات التي أثارها كتاباته تجعله مثلاً تاريخياً ورمزياً (2004). لأنَّ الحقيقة تبقى حقيقة، كما يرى سقراط، لا تحمل معنى التَّواطؤ، أو التستر، بل الكشف. وهذا الأخير يتطلَّب أمرين: الشَّجاعة والقدرة. فإذا وجدت الشَّجاعة تبعثها القدرة التي تحقِّق الإمكان (أورد في: Platon, Théétète). الفلسفة بطبيعتها عامة ومفتوحة، شاملة للمثقف والنُّخبة والمجتمع في كليته. والمثقف الحقيقي هو من يتحمَّل مسؤوليَّة استخدام المعرفة في تخليص الآخرين وليس في الخضوع لهم أو إخضاع الآخرين له. المثقف الحقيقي هو من يحمل سؤال النِّقد كتكليف.

❖ **خاتمة:** تبين لنا من خلال هذه الورقة أنَّ ما عشناه مع ماركيز هو إنارة لقراءة جديدة مشدودة بلحاظ سُقراطي خالص. كما نوّكد بأنَّ اللّاحظ شدنا مرة أخرى نحو مقال ماركيز "في الفلسفة العينية" الذي غالبًا ما يُذكر بشكل عابر في الدّراسات دون وقفة فاحصة. وعلينا الاعتراف بأن ترجمة أفكاره هي ترجمة عمليّة براغماتيّة هدفها توصيل الفكرة وتيسيرها على الفهم. وعيشنا لهذه التجربة سمح لنا بالتوصل إلى نتائج نُعلن عنها كالتالي:

✓ المايوتيقا في ارتسامها السُّقراطي هي إمكانية لانتزاع الحقيقة الباطنة في المكنونات العينية وفق استجابات واحترازات دقيقة. كما أنّها ليس مُجرّد تشبيه سطحي لأسلوبه في الحوار، بل لها تعلق صميم باعتقاده لحمل النّفس والعالم من حولهما لحقيقة ما تعيش حجبًا أو تُحتجب عمدًا، لا بد من جعلها موضع كشف وإبانة. أي، جعل الحقيقة تتّعيش في وجودها من فوهة الإنسان أو واقعه.

✓ تحمل فلسفة سُقراط طابعًا ثوريًا في مسلكها المايوتيقي، وكان ماركيز يمدحه ويتمرّسه بصورة ضمنيّة أو صريحة. وفي نظره، الحقيقة الحقّة تعيش «لا تجلّ» مُتعمدًا في لا تجليها، لأنّها تكشف الواقع في جزئيّته وقصوره. إذا مهمّة الفيلسوف هي وضع الحقيقة في صورتها الحقّة كتطابق أمام الدّازين، أي، تطابق حقيقة الأشياء في جزئيّتها وسلبيتها مع الحقيقة بإمكاناتها في صورتها الكليّة.

✓ الطابع الذي تسلكه الحقيقة مع ماركيز في عينيّتها وطابعها المايوتيقي الثوري شكل فلسفة واقعيّة تأخذ على عاتقها محنة الوجود الإنسانيّ في "مجال الفعل" أو "المجال العام" الذي يحتضن وجوده. وهنا بالذات تُثبت الفلسفة راهنيّتها؛ في سؤالها عن الوجود بموجوده، وهو الدّازين.

✓ إذا كان (José Manuel Romero) ينعت ماركيز، بـ «مُفكّر برلين» (2019). فإننا نقول إنّه سُقراطها. ولنا في اللّقاء هذه تأكيد. لأن إنزال الفلسفة من بحثها في سماء التّجريد إلى أرض الواقع والعودة إلى مسألة الذات وتأكيد اقتدارها على التّفكير والإبصار الواقعيّ في عينيّته، مهمّة سُقراطيّة في جذورها. طريقة سُقراط في القبالة هي طريق النّظريّة النّقدية في طابعها العينيّ والثوريّ.

✓ الفلسفة مع ماركيز لا تتعلق بمعرفة الأشياء، بل بـ "فعل الأشياء". هذه دلالة على العلاقة المعقدة بين الوجود البشري والحقيقة. الواقع كعيني حقيقي، وبما يجب أن يكون وكما يسمح له الإمكان بأن يكون كائنًا، وليس بما هو كائن عليه فقط.

✓ يستحق الأسلوب الفلسفي لكيركجارد، في نظر ماركيز، الثناء. وبهذا يمتدحه من جهة، ويستند عليه في إيضاح أفكاره من جهة أخرى. فقد أخذت فلسفة كيركجارد طابعًا سقراطيًا مايوتقيًا ثوريًا جديد وبالأخص في مفهوم التزامن. التزامن الدائم للحقيقة وتحدٍ لراهنية الوضع الإنساني، فيتحرر الدازاين من حتمية المصير، ويعيش بأصالة في عالمه مع إِبصارٍ حقيقيٍّ للحقيقة الحقّة.

من هنا، الفلسفة مع ماركيز ليست شيئًا مُفارقًا لنا بل مُحايث لوجودنا، موجودةٌ فينا وملازمةٌ لنا على الدوام. التّفلسف إذا ما امتنّاه بأدواته الأصلية سيبقي الحقيقة في وضعها الآليتي. أين تكون في وضعٍ كاشفٍ لا حاجِب. الحقيقة هي اقتدارٌ وإنصافٌ لها وإفصاحٌ عنها.

❖ قائمة المراجع:

1. ماركيز، هربارت. (2004). الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة: جورج طرابيشي. بيروت: دار الآداب للطباعة والنشر.
2. ماري، إلين ويث. (2000). تاريخ النساء الفلاسفة في العصرين اليوناني والروماني، ترجمة: محمود السيد مراد. الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.
3. John A. W, Mark Cobb. (2004). Herbert Marcuse: a critical reader. London: Routledge.
4. Jon, S. Katalin, N. (2016). Kierkegaard and the Greek World, tome i: Socrates and Plato. London and New York: Routledge.
5. Marcuse, H. (1929). Ueber konkrete Philosophie, Archiv Für Sozialwissenschaft Und Sozialpolitik 62.
6. Marcuse, H. (1964). One-Dimensional Man :Studies in the ideology of advanced industrial society. London and New York: Routledge classics.
7. Marcuse, H. (2005). The New Left and the 1960s Collected Papers of Herbert Marcuse. , Vol. 3. Edited By Herbert Marcuse, Douglas Kellner. London and New York: Routledge.
8. Marcuse, H. (2014). Marxism, Revolution and Utopia, collected papers of Herbert Marcuse, edited by Douglas Kellner and Clayton Pierce, vol. 6. London and New York: Routledge.
9. Marcuse, H. (2019). Entre fenomenologíay marxismo, Escritos filosóficos 1928-1933. 1Edition. Traduit par : José Manuel, Romero Cuevas. Éditeur par Universidad de Antioquia.
10. Platon. Théétète ou Sur la Science ; genre peirastique. Traduction par : Émile Chambry. Volume 9. La Bibliothèque Électronique du Québec.
11. Bailly, M, A. (2020). Dictionnaire Grec-Français, Paris : Gérard Greco.